مسيرة الأربعين : رحلة حب تغير الحياة

السبت ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١

بقلم سيد ظفر مهدي

ملايين العشاق المتحمسين، في إظهار الحب والإخلاص الذي لا يمكن تفسيره، يسيرون بسلاسة ودون كلل من مدينة مقدسة إلى أخرى، ليلًا ونهارًا، متحدين الطقس العاصف والتهديدات الأمنية المشؤومة. رجال ونساء، صغار وكبار، يأتون من مختلف أنحاء العالم ويجتمعون في مكان واحد، يسمونه الجنة. إنها ليست مقتطفاً من كتاب مثير مليء بخيالات من الخيال. إنها معجزة جميلة رأيتها تتكشف أمام عيني قبل عامين. معجزة تتكرر كل عام. إن لم تخمنوا بالفعل، فأنا أتحدث عن أكبر وأعظم مظاهرة ضد الإرهاب والتطرف والتي تقام في الشهر القمري الثاني، بعد أربعين يوماً من عاشوراء، ذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) وأصحابه في صحراء كربلاء قبل ١٤ قرناً. إنها ليست مجرد مسيرة، بل هي علامة احتجاج ضد كل أشكال ومظاهر الإرهاب والفاشية والإمبريالية والاستبداد والقمع الذي تمارسه الجهات الفاعلة الحكومية وغير الحكومية. إنها صرخة حاشدة لدعم المظلومين والضعفاء والعاجزين، وهي تأكيد على التعهد بالتمسك بالمبادئ التي جسدها "سيد المتحدين" في كربلاء.

رحلة العمر

قبل عامين، حظيت بفرصة الشروع في هذه الرحلة التي ستغير حياتي . لقد كان ذلك بمثابة تحقيق لحلم طالما كنت أحلم به. لقد سمعت لسنوات قصصًا رائعة من أولئك الذين سافروا إلى هناك قبلي. كما شاهدت أفلامًا وثائقية وقرأت مقالات ومذكرات سفر عن ذلك المكان. والآن حان الوقت لعيش الحلم. كان الشعور سرياليًا. بصفتي صحفيًا، يتطلب عملي مني السفر على نطاق واسع. وقد أخذني ذلك إلى العديد من الأماكن المذهلة خلال السنوات القليلة الماضية. ولكن هذه المرة لم يكن العمل هو الذي قادني إلى العراق، بل الحب.

قبل أسبوع واحد بالضبط من أربعينية الإمام الحسين، حملت حقيبتي على ظهري وركبت حافلة من محطة الحافلات في جنوب طهران متجهة إلى شلامجة ، وهي بلدة حدودية في غرب محافظة خوزستان. وصلت الحافلة إلى الحدود في الساعات الأولى من الصباح. وعندما نزلنا من الحافلة، كانت المشاهد مذهلة. كان عشرات الآلاف من الناس يتدافعون بحثاً عن مكان لدخول العراق سيراً على الأقدام. لم أر مثل هذه المشاهد في حياتي قط. كان الجميع متحمسين بشكل واضح للرحلة التي تنتظرهم. كانت ترانيم "يا حسين" تملأ الهواء، بينما كانت الشمس تشرق ببطء فوق أفق الصحراء الضبابي.

كان الانتظار طويلاً عند نقطة الحدود ، ولكن لم يكن هناك من يتذمر. وقفت في طابور طويل لمدة ثلاث ساعات تقريباً قبل أن أتمكن من العبور. وفي اللحظة التي وطأت فيها قدماي أرض العراق، تذكرت كلمات نيل أرمسترونج عندما هبط على سطح القمر. كانت خطوة صغيرة ولكنها قفزة عملاقة. كان الشعور ساحقاً. لقد نجحت. بعد أن مشيت بضعة كيلومترات في "الأرض الحرام" التي تفصل بين البلدين، صعدت إلى حافلة أخرى على الجانب العراقي من الحدود إلى النجف. كانت رحلة طويلة وشاقة في حافلة تعج بالزوار، لكن الإثارة والحماس للوصول إلى الوجهة طغت على كل شيء. كانت كل العقول والأعين ملتصقة بالقبة الذهبية لضريح الإمام علي (ع) في النجف. وعلى الرغم من التعب، لم ينم أحد في الطريق. وعندما توقفت الحافلة أخيرًا في المحطة في النجف، كان الأمر غير واقعي. كنا في مدينة "أمير المؤمنين".

مقدمة للمشي

في النجف كانت الشوارع تعج بالزوار الذين توافدوا من مختلف أنحاء العالم. وكان السكان المحليون قد أقاموا أكشاكاً تقدم للزوار المشروبات المحلاة والفواكه والوجبات الخفيفة. كنت قد سمعت عن كرم الضيافة الذي يتسم به العراقيون، وها أنا ذا أعيش هذه التجربة. وبينما كنت أشق طريقي وسط الحشد ، عرض عليّ شابان صغيران أحسّا بأنني أجنبي أن يستضيفاني في النجف. لقد كانت هذه لفتة جميلة ولطيفة من غرباء لم تكن تربطني بهم أي صلة سوى محبة أهل البيت عليهم السلام. لقد كنا من أتباع الرجل الذي كان معروفاً في مدينة الكوفة بـــ "أبي الأيتام" لنبله وسعة صدره. لقد رفضت عرضهم بأدب، حيث كان أحد أصدقائي في المدرسة في الهند، والذي يدرس الآن في حوزة النجف، ينتظرني. كانت أكشاك الطعام من حولي، وكان الطعام يُقدم بحب ودفء، ولكن بطريقة ما اختفى جوعي. كنت أريد فقط الوصول إلى ضريح الإمام علي (عليه السلام). كان المكان على بعد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام من المحطة، فخطوت خطواتي بأقصى سرعة ممكنة. وظل الحشد يتجمع حولي، وقلت سرعتي التي تشبه الماراثون. وبدا الأمر وكأن العالم بأسره قد اجتمع هناك. هناك العديد من الممرات الصغيرة المتعرجة حول الضريح، وكانت جميعها مكتظة بالناس. وبعد جهد كبير، وصلت إلى نقطة حيث تمكنت من رؤية القبة الذهبية الجميلة للضريح وهي تشع بريقها. وقفت للحظات وألقيت نظرة طويلة حادة عليها. كانت هذه لحظة كنت أنتظرها لفترة طويلة. استمر السير بلا انقطاع حتى اقتربت من الضريح. وكان التحدي التالي هو الدخول إلى الضريح. وقفت عند البوابات المهيبة، ولم يكن هناك أي مساحة كافية لوضع قدمي. وبعد لحظات قليلة، دفعني تسونامي من الناس نحو القاعة الرئيسية للضريح المهيب. وبدأت الدموع تتساقط من عيني بلا توقف. هنا كنت في مدينة إمامي، داخل ضريحه، تحت قبته، أمام قبره مباشرة. أردت أن أصدق ما أراه وأشعر به وأختبره. أردت أن أصدق أنه حقيقة وليس حلمًا. داخل الضريح، رأيت أشخاصاً من جنسيات مختلفة، ولغات مختلفة، وألوان بشرة مختلفة، وفئات عمرية مختلفة، يبكون، ويصرخون، ويبتسمون، ويشعّون بالبهجة – مجموعة كاملة من المشاعر الإنسانية الخالصة. كان صدى "يا علي" يتردد من كل الزوايا ، وهو هتاف له جاذبية عالمية ، وهو شعار ترتبط به حملات الحقيقة والعدالة في كل مكان. لقد منحتني اليومان اللذان قضيتهما في النجف ذكريات لا تنسى طيلة حياتي.

فقد أقمت في بيت صديقي القريب من المرقد، ولكن مضيفي كان أمير المؤمنين (عليه السلام) نفسه. وشعرت وكأنني في بيتي. ولم أشعر بهذا الشعور في أي مكان آخر، إلى أن وصلت إلى كربلاء.

المسير نحو الجنة

لقد حان الوقت أخيرا للتوجه نحو الأرض التي سمعت عنها ، وقرأت عنها ، وفكرت فيها. الأرض التي غرقت في دماء اثنين وسبعين شهيدا، بمن فيهم حفيد رسول الله. وكلما اتجه الحديث إلى كربلاء، تدمعت عيوننا. فبهذه الدموع ، كما قال الإمام الخميني ذات يوم، دمرنا إمبراطوريات قوية. إن كربلاء فكرة ومفهوم وحركة ستظل ذات أهمية وارتباط دائمين. إن انتفاضة الإمام في تلك السهول الصحراوية لابد وأن تعزز من عزمنا على قول الحقيقة للسلطة، وأن نكون صوت من لا صوت لهم، وأن نناضل من أجل الحقيقة والعدالة. كما يقول الدكتور علي شريعتي، لقد بذل الشهداء دمائهم، والآن على الناجين أن يحملوا رسالة تلك الدماء إلى الأجيال القادمة. لقد بذل الإمام الحسين (ع) دمه، وأصبحت السيدة زينب (ع) لسانًا فصيحًا لتلك الدماء.

مسيرة الأربعين هي مسعى يهدف إلى إبقاء حركة كربلاء حية، ونقل رسالة الدم إلى الأجيال القادمة. إنها حركة ضد الإرهاب والفاشية والاستبداد. إنها حركة تسعى إلى حماية وتعزيز القيم الإنسانية المتمثلة في الحب والرحمة وإدانة التعصب والطغيان واستغلال النخب القوية. إنها حركة من أجل الإنسانية وجاذبيتها تخترق حواجز الدين والطبقة واللون والعقيدة، وهذا هو بالضبط السبب وراء انضمام غير الشيعة أو حتى غير المسلمين إلى هذه المسيرة الأعظم على وجه الأرض. قبل أربعينية الإمام الحسين (ع) بأسبوع، يبدأ عشرات الآلاف من الناس كل يوم السير نحو كربلاء انطلاقاً من النجف. بدأنا مسيرتنا قبل أربعينية الإمام بثلاثة أيام من مجمع مرقد الإمام علي (ع). كانت الشوارع تعج بالناس الذين يرتدون الثياب السوداء، ويحملون الأعلام واللافتات واللوحات، ويهتفون "لبيك يا حسين". لم يعد الأمر حلماً. لقد صدقت ما أراه. إن الرحلة بأكملها، والتي تبلغ حوالي ٨٠ كيلومترًا (٥٠ ميلًا) من النجف إلى كربلاء، تتميز بوجود ١٤٠٠ عمود، وهو ما يتوافق مع عدد السنوات التي مرت منذ وقوع حادثة كربلاء المأساوية. يستغرق الأمر حوالي يومين وليلتين لتغطية هذه المسافة اعتمادًا على سرعة المشي والتوقفات بين الحين والآخر. عندما بدأنا السير، كان الجو ممطرًا مع نسيم لطيف. كان هناك رجال ونساء وأطفال وشيوخ حولي، يسيرون نحو نفس الوجهة.

في حب الحسين (ع)

وعلى طول الطريق من النجف إلى كربلاء، أقيمت أكشاك من قِبَل السكان المحليين والجمعيات الخيرية والمساجد ومجموعات المساعدة الأجنبية لضمان عدم تعرض أي زائر للجوع أو العطش. وكان الطهاة يعدون كميات هائلة من لحم الضأن المطهي والأسماك المشوية والفاصوليا والخبز الطازج والأرز. وكانت هناك خيام مؤقتة صغيرة مبطنة بفرشات إسفنجية وبطانيات صوفية ليتمكن

الناس من الراحة أو النوم. وبالنسبة للتعب، كان هناك مدلكون لمنحهم تدليكًا سريعًا ومنعشًا. وبالنسبة للأحذية المغطاة بالغبار، كان هناك متطوعون لتلميعها. وكانت هناك أيضًا حمامات متنقلة للاستحمام السريع وسيارات إسعاف متنقلة في حالة الطوارئ الطبية. ولم يطلبوا أي مبلغ على الإطلاق، فقط من أجل حب أهل البيت عليهم السلام. في السنوات الأخيرة، قبل تفشي الوباء، تزايدت أعداد الزوار في الأربعينية بشكل هائل. في العام الذي ذهبت فيه، وصل الرقم إلى ١٥ مليونًا، على الرغم من أن الرقم الرسمي كان مختلفًا. في العام الذي سبق ذلك كان أول زيارة للأربعين منذ أعلنت الحكومة العراقية النصر الساحق على داعش. طوال هذه السنوات، كان الناس يذهبون إلى هذه الزيارة على الرغم من وجود داعش في البلاد، وهو أمر لافت للنظر. فقط أولئك الذين يتمتعون بإيمان لا يتزعزع وقناعة لا تتزعزع قادرون على تحمل مثل هذه المخاطر الضخمة. ومن الآمن أن نقول إن هذا الاحتجاج الأعظم ضد الإرهاب كان عاملاً رئيسيًا في القضاء على الجماعة الإرهابية المروعة من العراق. ولكن المخاوف الأمنية لم تكن تشغل بالي. فقبل أن أسافر إلى إيران، قضيت بضع سنوات في أفغانستان، حيث كنت أتولى إعداد التقارير عن حوادث العنف اليومية. كما نشأت في كشمير، أكبر منطقة عسكرية في العالم. وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لي.

في الطريق أمسكت بعلم مكتوب عليه "يا أبا الفضل" في إحدى يدي ولافتة تتعلق بموطني الجريح النازف - كشمير - في اليد الأخرى. شعرت وكأنني جندي يرتدي زي الحرب. كان البحر غامرًا مع بحر من الناس يمشون ويركضون ويزحفون نحو منزل أبي عبد الله (عليه السلام). وفي الطريق شاهدت مشاهد لا تصدق، فرأيت شاباً يحمل أمه المسنة على كتفيه، ورأيت أباً يدفع كرسياً متحركاً وابنه المعوق يجلس عليه، ورأيت طفلة في الثالثة من عمرها تقف على مقعد في منتصف الليل تقدم الحلوى للمسافرين، ورأيت عائلات تمشي معاً، وجداً يمسك بيد حفيدته، ينشدون مراثي مؤثرة في ذكرى شهداء كربلاء. كان الملايين من الناس الذين ساروا نحو كربلاء من جنسيات مختلفة، وجاءوا من ثقافات مختلفة، وتحدثوا لغات مختلفة، لكن ما وحدهم هو حبهم لأهل البيت والتزامهم بتكريم ذكراهم. كان الأمر أشبه بروافد صغيرة تندمج في بحر عملاق. رفعوا بفخر أعلام بلدانهم وساروا في انسجام. كان معظمهم من الإيرانيين، لكن الكثير منهم جاءوا أيضًا من لبنان وأذربيجان وباكستان والهند وكشمير وتركيا وسوريا وإندونيسيا وبعض الدول الأوروبية. التقيت بطالبين جامعيين من أستراليا جاءا من سيدني لحضور هذا الحدث. لقد سمعا عن هذا الحدث من أصدقائهما، الأمر الذي دفعهما إلى الشروع في هذه الرحلة المذهلة. "هذا أمر مذهل. لم أر قط مثل هذا الحدث، حشد ضخم كهذا، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان منظماً على هذا النحو"، هكذا أخبرني أحد الحاضرين. وأضاف: "ينبغي للسلطات السعودية أن تتعلم من العراقيين كيفية إدارة مثل هذا التجمع الديني الضخم". التقيت بأشخاص من جنسيات مختلفة، وتوافقنا على الفور. وتراوحت المحادثات بين الحرب الناجحة التي خاضها العراق ضد داعش، وجرائم الحرب التي ارتكبتها أميركا في المنطقة، والعلاقة السرية بين الدول العربية والكيان الصهيوني، وحالة الأقليات الدينية في جنوب آسيا، وأهمية كربلاء في عصرنا. مشينا وتحدثنا واكتشفنا أننا اتفقنا على أشياء كثيرة. وأصبحنا أصدقاء ورفاقًا في المسير. وهكذا يمكن أن تكون الأربعينية تمرينًا فكريًا محفزًا وتبادلًا ثقافيًا بين الناس من مختلف الجنسيات والثقافات الذين يجتمعون من أجل قضية مشتركة.

إعادة تعريف الضيافة واللطف

في اليوم الأول من الرحلة، التقيت ببعض الأصدقاء على الطريق. كانت الأيام حارة نسبيًا والليالي شديدة البرودة. وفي كل خطوة على طول الطريق، كان هناك مضيفون ودودون يحثون المشاركين على الجلوس لتناول الشاي الأسود العراقي المحلى والوجبات الخفيفة. توقفنا عند كشك صغير حيث كان زوج وزوجته في الثلاثينيات من العمر يقدمان الشاي والتمر الطازج للمسافرين. كانا ينتميان إلى قرية محلية ويعملان في المزارع لكسب المال لكسب العيش. أخبرني الرجل أن خدمة ضيوف الإمام الحسين (ع) كانت امتيازًا له. "أدخر كل شهر من دخلي الضئيل وأجمع كل المدخرات لأنفقها على ضيوف أبي عبد الله (عليه السلام) في الأربعين. وأستطيع أن أجوع نفسي حتى لا يجد الزوار أي سبب للشكوى". لقد أثرت كلماته فيّ بشدة. واصلنا الرحلة حتى هبط الليل ثم توقفنا للنوم لبضع ساعات قبل استئناف السير. كانت جميع الخيام مكتظة ولم يكن هناك أي مكان للاستلقاء. كان الليل مظلمًا وباردًا بينما كنا نبحث عن مأوى. جاء بعض الصبية الصغار من العدم وعرضوا علينا بعض البطانيات الصوفية، مما أنقذنا من ضربة البرد المحتملة. على بعد أمتار قليلة، قال لنا رجل مسن شيئًا باللغة العربية لم نفهمه. ثم أشار إلى خيمة صغيرة على جانب الطريق وقادنا إلى الداخل. لحسن الحظ كان لا يزال هناك بعض المساحة. من المدهش الطريقة التي يُظهر بها الغرباء تمامًا مثل هذا اللطف والرحمة هناك. عند شروق الشمس استيقظنا لأداء الصلاة ثم استأنفنا السير حتى صلاة العصر، مع فترات راحة قصيرة لتناول الشاي. وعلى طول الطريق كان الجو مشحوناً بالإثارة والتشويق مع اقترابنا من وجهتنا. فقد أنشد الزوار الإيرانيون المراثي الفارسية، وأنشد الهنود والباكستانيون المراثي الأردية، وانضم الزوار من لبنان وسوريا إلى الجوقة باللطميات العربية. وقد اجتمعت كل الألحان لخلق أجواء دافئة للقلب. وبعد صلاة العصر، مشينا بسرعة، ربما بدافع الإثارة. بدأنا نحصي عدد الأعمدة التي تركناها خلفنا حتى ظهرت لوحة إعلانية كبيرة على الطريق: "مرحبًا بكم في كربلاء" مكتوبة باللغة العربية. خفق قلبي بشدة، فقد حانت اللحظة. كنت في كربلاء ولكن المراقد كانت لا تزال على بعد أميال قليلة. كان حشدًا لا يصدق، بالكاد كان هناك مساحة للتنفس. لكن من يريد أن يتنفس في كربلاء، قلت لنفسي. سأتنفس بفخر بين الحرمين، بين ضريحي الأماميين. ببطء شديد، تحرك الحشد إلى الأمام حتى ظهر ضريح أبي عبد الله (عليه السلام) أمام عيني.

مرحبا بكم في كربلاء

لقد كنت في الجنة رسميًا. اختفت كل الأفكار من ذهني. كل ما كنت أفكر فيه هو ذلك اليوم المشؤوم قبل أربعة عشر قرنًا عندما واجهت مجموعة صغيرة من المحاربين المقدسين جيش إمبراطورية عظيمة. بدأت المشاهد تظهر أمام عيني. طفل رضيع يُؤخذ إلى ساحة المعركة، وشاب يقاتل كمحارب محنك، وحامل لواء يذهب لجلب الماء من جدول قريب ولا يعود أبدًا، وأطفال صغار يبكون من العطش، وحفيد رسول الله الحبيب يصرخ بصوت عالٍ: "الا هل من ناصر ينصرنا ؟". لم يكن السؤال موجهاً إلى جنود يزيد بن معاوية، ولم يكن الإمام الحسين (ع) ينتظر منهم الرحمة، بل كان موجهاً إلى أتباعه، وموجهاً إلينا، وهذه المسيرة المليونية من النجف إلى كربلاء كل عام هي

استجابة لذلك النداء الذي لا يزال يتردد صداه في قلوب وعقول المؤمنين. عندما وقفت أمام مرقد سيد الشهداء (عليه السلام)، توقف الزمن، كان الناس من كل جانب يحاولون الاقتراب من المرقد، وفي وسط الحشد فقدت رفاقي، لكن الأمر لم يعد مهمًا الآن، كنت أقف بجانب الحسين بن علي (عليه السلام)، كل شيء آخر فقد معناه، شعرت وكأنني محارب عظيم غزا العالم. وبصعوبة بالغة تمكنت من شق طريقي وسط الحشود إلى بين الحرمين الشريفين، وهو امتداد صغير بين مرقد الأخوين الإمام الحسين (عليه السلام) وأبو الفضل العباس (عليه السلام). هذا هو مركز الكون لمحبي أهل البيت (عليهم السلام). نظرت إلى الحسين (عليه السلام) ثم نظرت إلى أبو الفضل (عليه السلام)، شعرت وكأنهما يجلسان معًا ويراقباننا. لم أشعر قط بمثل هذا الانفعال في حياتي. كانت زيارتي الأولى لكربلاء، وها أنا أقف بين الأخوين اللذين غيّرا مجرى التاريخ بإيمانهما الراسخ وشجاعتهما التي لا تقهر. دخلت إلى مرقد الإمام الحسين (ع) وسط حشد من الناس، فرأيته مكتظاً بالناس. وفي إحدى زوايا القاعة وجدت مكاناً صغيراً لأقف وأقرأ زيارة الأربعين. لم أكن أريد أن أترك تلك القاعة، بل أردت أن أجعلها بيتي. ثم ذهبت إلى مرقد أبي الفضل العباس (ع)، حامل لواء كربلاء، الذي كان اسمه كافياً لإثارة البلبلة في قلوب الأعداء. وبينما كنت أسير ببطء داخل مرقده، رأيت أنه ما زال يتمتع بنفس الهالة. كان الناس يصرخون ويصيحون: "يا أبا الفضل". لم تكن هناك عين لا تدمع. لقد قامت مجموعة إيرانية بتلاوة رثاء جميل داخل القاعة – علمدار ناياماد (حامل العلم لم يعد). عندما كنا أطفالاً، كثيراً ما يُطلب منا أن نهتف "يا أبو الفضل" إذا كنا خائفين من أي شيء أو إذا شعرنا بأي خطر. هنا كنت، داخل ضريح أبو الفضل، أناديه وأشاركه أسراري وأخبره عن محنتي. أعلم أنه كان يستمع. لقد كان اليومان اللذان أمضيتهما في كربلاء بمثابة نقطة تحول في حياتي. فلم أنم ليلاً، وظللت أجلس بين الحرمين أتأمل المرقدين طيلة الليل. بعد يومين لا يمكن نسيانهما في كربلاء، غادرت إلى بغداد لزيارة الإمام موسى الكاظم (ع)، كان الحشد هناك أقل نسبيًا. في اليوم التالي، غادرت إلى سامراء لزيارة الإمام العسكري (ع)، مما أعاد إلى الأذهان هجوم ٢٠٠٦ الإرهابي. لم يعد لهؤلاء الإرهابيين، مثل يزيد، أي أثر. من سامراء، استقلت حافلة إلى حدود مهران، وعدت إلى إيران. انتهت رحلة الاربعين، أجمل عشرة أيام في حياتي، قطعت عهداً على نفسي أن أعود كل عام، لكن هذا لم يحدث، فقد عطل فيروس كوفيد-١٩ كل شيء، لكن العهد بقي قائماً، عهد الوفاء للحبيب، الذي لا يفهم معناه إلا المحبين الحقيقيين.

سيد ظفر مهدي صحفي ومحرر ومدون من كشمير مقيم في طهران يتمتع بخبرة تزيد عن ١٢ عامًا. وقد قام بإعداد تقارير موسعة من كشمير والهند وباكستان وأفغانستان وإيران لصالح مطبوعات رائدة في جميع أنحاء العالم.